التهجير وإقصاء الذات: قراءة في ومضة "خفافيش" للُمى العُمري

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

خفافيش

ودع بيته وكنيسته وعلى خده دموع التهجير القسري؛ ضم وطنه في أحضان ذاكرته ورحل.

ومضة "خفافيش" للكاتبة العراقية لُمَى العُمري ومضة تضعنا في قلب الصراعات الطائفية والعرقية والدينية التي تتفشى في مجتمعاتنا المعاصرة. الجملة الأولى من الومضة تؤسس للحدث وتعرضه وتشتمل على مفردات دالة تتجاور في نسق جملة مليئة بالتفاصيل التي ترسم لنا لحظة فارقة من حدث من الأحداث التي تتمخض عن تلك الصراعات. فتبدأ الومضة بالفعل ودّع دون أن تذكر الشخصية. ولكن استتار الفاعل في هيئة ضمير مستتر لا يغيِّب الشخصية، فالتفاصيل الواردة في الجملة الأولى كفيلة بأن ترسم لنا ملامح الشخصية جيدا من خلال الذكاء في استعمال الألفاظ الدالة التي تجتمع مع بعضها في تركيب لغوي مكثَّف بالجملة الأولى. فالمفعولان اللذان يأتيان بعد الفعل يشيران إلى ديانة الشخصية بوصفها شخصية مسيحية وإلى مواطَنَة الشخصية بوصفها تنتمي لنفس المكان الذي ينتمي إليه من أجبروه على الرحيل. وورود البيت والكنيسة وراء بضعهما في النص يوحي بأن

التهجير كان لأسباب دينية، كما أن تقديم كلمة البيت على كلمة الكنيسة يؤكد على أن السمة الأساسية للشخصية تتمثل في كون الرجل مواطنا في الدولة قبل أي شيء آخر، ويأتي بعد ذلك ذكر الكنيسة للدلالة على الهوية الدينية للرجل، وهو هوية لا تتنافى مع الهوية المكانية ولا الهوية الوطنية أو القومية، فمادام الشخص مواطنا في الدولة، من المفترض أنه يتمتع بكل الحقوق التي يتمتع بها المواطنون الآخرون، ومن بين هذه الحقوق الحرية الدينية.

وبعد الفعل والفاعل والمفعولين، تستعمل الكاتبة جملة اسمية معطوفة على الجملة الفعلية، وهذه الجملة الفعلية تَرِدُ بمثابة حال الشخصية لحظة الوداع. وهذه الجملة تخلق مفارقة لفظية من خلال الاستغناء عن الكلمات المعتادة المرتبطة بكلمة الدموع مثل "الحزن" و"الفراق" و"الندم" و"الفرحة" وما إلى ذلك من مفردات، وتستعمل محلها تعبير "التهجير القسري" الذي يأتي بصفته استعارة ومجازا وما يتولد عنهما هنا من مفارقة لفظية. وأعني بالمفارقة اللفظية هنا أن التركيب اللغوي يستدعي استعمال لفظ ينتمي لحقل دلالي معين أو مجموعة ألفاظ تنتمي لمجال معنى معين، ولكن الكاتبة لا تستعمل لفظا من هذه الألفاظ، وإنما تستعمل لفظا ينتمي لحقل دلالي آخر أو مجال معنى آخر، ليدخل هذا اللفظ المختلف في التركيب اللغوي ويولد دلالة مضاعفة أو زائدة أو مضافة لا تستطيع الألفاظ التي

تنتمي للحقل الدلالي المعتاد أن تولدها. فالتهجير القسري هنا هو الذي يولد الدموع التي نراها في عين الشخصية، الأمر الذي يدل على ارتباط الشخصية بوطنها وبيتها وكنيستها ويضع علامة استفهام حول سلوكيات وتوجهات وعقليات من يجبرونه على الهجرة.

وعندما نصل إلى الجملة الأخيرة من الومضة "ضم وطنه في أحضان ذاكرته ورحل" نجد أنها تستكمل هذه اللقطة من الحدث الأكبر وتبني على دلالتها. ومن الملاحظ أن هذه الجملة فيها فعلان في مقابل وجود فعل واحد في الجملة الأولى: منهما فعل يناظر الفعل الأول وهو الفعل "رحل" الذي يأتي في نهاية الومضة ويتساوى دلاليا مع الفعل "ودّع" الذي يأتي في بدايتها. والتكرار الدلالي الذي يضم بداية الومضة ونهايتها يضعنا في دائرة مفرّغة توحي بحتمية الرحيل حتى لو كان هذا الرحيل عبثيا – ليس بسبب الراحل ذاته وإنما بسبب الظروف والممارسات التي أدت إليه. أما الفعل الثاني الذي يأتي في الجملة الثانية والأخيرة من الومضة فيبني على دلالة ما هو غير مذكور في النص ولكنه كائن فيما قبل البداية النصية: أي ما يستدعيه النص بطريقة ضمنية من ارتباط الشخصية بالوطن الذي تتقاسمه مع من قاموا بتهجيرها قسريا. والراوية تستعمل ضمير الغائب المفرد المتصل بكلمة "وطن" لتؤكد لنا أن الوطن وطن هذه الشخصية كما هو وطن الآخرين، الأمر الذي يؤكد إدانة النص لفعل التهجير. والرجل يضم هنا

الوطن، وهو ضم يتماشى مع التوديع ويقوّيه، ولكن الرجل لا يضم الوطن حقيقة وإنما يضمه في "أحضان ذاكرته"، الأمر الذي يوحي بأن الوطن يعيش فيه ولا يمكن لأحد أن ينتزعه منه، كما يوحي بانفصاله بدنيا أو جغرافيا عن هذا الوطن. وفعلا الضم والتذكر يوحيان بعبثية محاولة التهجير وإن كانت هذه المحاولة نجحت على مستوى الواقع المادي والجغرافي.

نحن هنا أمام عملية إبعاد جغرافي حيث يتم إبعاد الرجل عن موطنه وترحيله عنه. وهذا الإبعاد يوحي لنا بأن من يقومون بإبعاده غزاه أو مستعمرين حتى لو كانوا ينتمون لنفس الوطن، فالوطن ملك للجميع، وإذا استفردت به فئة واحدة تصير هذه الفئة مستعمرة وغازية ومحتلة للوطن، لأنها استحوذت على شيء ليس ملكا لها وحدها، وكأن هذه الفئة تغتصب الوطن وتستولي عليه بقوة السلاح وتحرم بعض أبنائه منه.